المؤتمر التوماني الدولي الرابع

بقلم الاب اغاطيوس عبده حليفه اليسوعي

اننا نعيش في عهد المؤتمرات، ففي ايلول الماضي وحده عقدت اربعة مؤتمرات كبرى جلساتها : ففي رومة انعقد «مؤتمر العلوم التاريخية والمؤتمر التوماني الرابع» وفي اوكسفورد «مؤتمر كتابات آباء الكنيسة» وفي اسطمبول «مؤتمر الجامعات» ومن البديهي ان تبادل الافكار يساعد على زوال التوتر من العقول ويعزز التفاهم بينها ، فلقد عاش موفدو عدد كبير من الامم ، ان لم نقل موفدو العالم برمته عيشة مشتركة لبعض الوقت وفي جوّ من التآخي والبحث عن الحقيقة وهم الذين تفصل بعضهم عن بعض عقائد مختلفة واحياناً متناقضة ، اما المباحثات فكانت مشبعة بروح الحماسة لتترك الاتصالات الشخصية شعوراً لا يقل حرارة بالرغبة المشتركة في البحث عن الحقيقة .

لقد ضمّ المؤتمر التوماني الدولي الرابع المنعقد في رومة من اليوم الثالث عشر من ايلول الى السابع عشر منه بقصر المستشارية مندوبي سبعين جامعة ومعهداً اي زهاء مئتين وخمسين موفداً انضم اليهم حوالى ثلاث مئة مستمع حرّ جاءوا من شتى الامم والاقطار .

ولقد كنت ترى الاسباني والفرنسي والبلجيكي والايطالي والالماني والبورتغالي والاميركي وابن اميركة الجنوبية واللبناني الخ يجلس بعضهم على مقربة من بعض كما شوهد علمانيون واكليريكيون قد تلكمهم ايضاً الحمية نفسها لفكرة العلامة القديس توما التي قورنت بفكرة هيجل وماركس وبالوجودية والعلوم في تقدمها الحالي .

والابحاث والتقارير الثلاثة والثمانون التي تداولوها انشطرت الى ثلاثة موضوعات رئيسية : الاول تعليم القديس توما ومقارنته بوضع العلوم الحالي وكان الانتباه مركزاً في هذا المقام خاصة حول العلاقات القائمة بين الفلسفة والعلوم ، فتحدث الاب جيرار دلوريه (P. Guérard des Lauriers) الدومينيكي مقرر

هذا الفرع الى جمهور المستمعين عن «علمي ما وراء الطبيعة ووراء العلوم» واخذ بمقدرة كبرى في تحليل العبارات الكبيرة التي يستخدمها علم ما وراء الطبيعة والعلوم : وهي مفاهيم الوجوب والجوهر والحياة والمادّة والكمّ والوصف وتحدّث اخيرًا عن حرّية الارادة ، وامكنه ليختم حديثه ان يستشهد من پول ڤرنوت (Paul Vernotte) الذي كان حاضرًا في المؤتمر خلاصة تقريره : « لقد ضاعف وضع العلم الحالي ثروة الادلة وجعل اشدّ ضروب التحليل ضرورية وصيّر ممكنًا عالياً اقامة براهين عدّة شديدة الدقّة من جنس واحد واوحى بدراسات لم تكن مرتقبة ، بيد انه لا بدّ من الاخذ بالحكمة البالغة في جميع هذه الامور فقد كنا مخدوعين غالباً ، فالزيغان واقف لنا بالمرصاد اما اذا كانت مفاهيمنا قد سارت على نور «ذلك ما يستطيع ان يوجّه ابحاثنا العلمية والفنّية خير توجيه» فمن الواجب ان نتأكد ان العلم لم يغيّر شيئاً من الفلسفة التقليدية كما كان علينا ان نرتقب ».

وكانت المناقشات التي عقبت بيان الاب جيرار «دلوريه (P.Guérard des Lauriers) تهدف الى تأييد هذه النتيجة ، فمبادئ الفلسفة التقليدية قد ظلّت بدون ان تتغيّر وضروب الحدس الاساسية في تعليم القديس توما لم تبدّلها اكتشافات العلم الحديث الجديدة .

وتناول الموضوع الثاني الذي اثار مزيدًا من المداولات والمناقشات تعليم القديس توما المقارن بنظرية هيجل وماركس ذات الحدود الثلاثة : القضية ونقيضتها والمركب عنهما وذلك في مبحث الجوهر في المنهج الهيجلي وفي منهج القديس توما ومفهوم الكيان في نظر هيجل ونظر القديس توما ومعنى التاريخ ومعنى ما هو كائن بذاته بدون اية علّة كانت والانسان كشعور بنفسه في فلسفة القديس توما ، تلك كانت المسائل الرئيسية التي اثيرت ليضاف اليها مسائل اخرى خاصّة كمسألتي الملكية والاسرة .

ولم يستطع مذهب هيجل العقلي الّا ان يفضي في النهاية الى انكار مبادئ العقل الاولى ، ففي ارادتهم رفع الانسان بفعله عن غايته الاخيرة ، عن الكيان بذاته فانهم يغيب عن نظرهم الشخص المحسوس في مصيره الذي لا يستطيع احد مشاركته فيه ، وان الاهتمام الوجودي والتوماني برتبته للشخص

وسيؤديه بوضعه على الطريق الصحيحة لعملية تصحيح تكون في صورة علم الفلسفة الوجودية بصورات شد فلسفية تمكن من ارجاع الانسان الى مقامه الحقيقي في الخلق ومن الوصول الى اتمثل عبادة للعلة الاولى وللمبدأ الاول.

ولم يكن هيجل الاول في اصراره على هذه الحقيقة وهي ان الانسان هو شعور بذاته. فالقديس توما قد اكد هذه الحقيقة قبله بزمن طويل ؛ ان الانسان هو شعور بذاته بحسب المعنى لان في مقدوره ان يعي حقيقة معرفته وهو روحي لكونه كشعور بذاته ؛ اما اذا كان العقل مقياس الانسان الخاص به حسب عقلية القديس توما فلانه يشبه شيئاً كبيراً الحقيقة التي لا يعتريها تحويل . اما في نظر هيجل فالامر على العكس « ان الشعور هو الذي يعطي بذاته مقياسه الخاص به ولهذا السبب سيصبح البحث مقارنة الشعور بذاته » Phénoménologie de l'Esprit, I, p. 75 .

ومن الواجب ارجاع كل هذه الفكرة الهيجلية وغيرها من وجهات النظر التي هي موضوع ابحاث المؤتمرين الى تركيزها في حركة نظريته ذات الحدود الثلاثة التي شدّد عليها هيجل كل التشديد .

وفي نظر هيجل لا واقعي الا المعقول فالمتناقضات لا يمكن فصل بعضها عن بعض والكائن لا يستطيع ان يوجد بدون اللاكائن .

ان هذه التأكيدات الانكارية للحقيقة والتي تنكر خاصة الحقيقة الاولية لتنقضها الفلسفة التقليدية : فانه يستطيع ان يوجد بدون اي مخلوق كان وبدون اي عقل له حدوده ؛ غير الفكر الذي له وجوده والحياة الذاتية والكائن بذاته وغاية الانسان الاخيرة ومبدأ ارتقاء الكائنات .

ولقد ظل الموضوع الثالث الا وهو مقارنة تعليم القديس توما بالمناهج الوجودية.

وبحثت فيه ثلاث مسائل رئيسية : مسألة الحقيقة ومسألة وجود الله والالحاد واخيراً مسألة علم الاخلاق والوجدان .

والوجودية التي هي ظاهرة من اقوى ظاهرات الفكر العصري تبدو كأنها قد ارجعت كائن الموجود الى الظاهر المحض والبسيط ومع ذلك فهي تود ان تكون علم ما وراء الطبيعة للوجود الانساني بيد انها تقف لدى بعض الوجوديين عند حدّ الدراسة الوصفية التشاؤمية لظاهرة او لمجموعة ظاهرات محضة كما

توضحها التجربة وعند فكرة العدم وعند مرحلة سابقة لعلم ما وراء الطبيعة عامة وعند الظاهر الذي ينكر في النهاية الكائن والله والطبيعة الانسانية الحقيقية ، فقد استطاع احد تلامذة سارتر ان يكتب: «ان انكار «الوجودية» لله تعالى لا يهتم كثيراً لاقامة البراهين على عدم وجود الله لكن لتجعل الانسان يشعر بوجوده الخاص به».

فيا لتعاسة مصير الانسان الذي «جعلوه يشعر بوجوده» ... او انهم فصلوه عن الله غايته ، او انه اذا كان صادقاً في تأملاته احس ، وقد أفرد على هذه الصورة ، بحاجته المؤلمة للارتماء. فيا هو اوسع منه بدون ان يفقد فيه ذاته ، في الكائن الذي له منه الحياة ، الكائن بذاته ولاجل ذاته ، الله ، اما الفلسفة الوجودية فتريد توجيه الانسان نحو تحرر كامل ومسؤولية اعظم و«بطولة» جبارة ووجود ابلغ صحة ونحو انتباذ كل استسلام وخسارة نفسية تكونه له فكرة الله ، ليتضح عدم جدوى هذه الفكرة وضررها ، لان الانسان هو مقياس الانسان وبوروده في مراحل الشجاعة واثبات ذاته ينتهي به الامر لكي لا يدرك الا عدم وجوده التافه «المهمل» الذي لا قيمة له .

ان الوجودية تصبح على هذه الشاكلة تعليماً قائماً على مفهوم مقتضيات الشخص الانساني الشاملة ولا تظل نقطة «المجادلة الالحادية» المركزية فيا بدأ السببية بل معرفة كيفية اتفاق اثبات الكائن الضروري مع الحرية الانسانية ومع الوجود الانساني الناقص في التاريخ .

ومن هذه المبادئ القليلة الموجهة ينجم علم الاخلاق الوجودي .

ان نفي وجود القريب نفياً باتاً يؤدي بالوجودية الى اثبات علم اخلاق فردي محض على حين ان الاختبار النفساني والتبحر في علم ما وراء الطبيعة يفضيان الى الاثبات ان الانسان بجوهره هو صلة بغيره ولا تستطيع هذه الصلة ان يكون لها قيمة الا اذا كان طرفيها الآخر الذي يؤسس وجود الانسان كائناً بذاته فالانسان ليس مغلقاً على نفسه ولربما كان وصول سارتر الى انكار الله والجحود متأتياً من كونه قد اضاع من امام عينيه مفهوم المصير والقوة .

واننا سنقف هنا في هذا العرض الموجز للمسائل الكبرى التي بحثت في اثناء المؤتمر التوماني ومع ذلك فقد كانت قضايا اخرى ليست باقل اهمية منها

موضوع البحث فلذلك لا يخلو من الفائدة ان نشير الى اسما. بعض من كانوا من المتحدثين كالآباء جان ابيله (Jean Abelé) ، وكلوبرتانز (Kulbertanz) ، وسلفاجي (Selvaggi) ، وج دوكوان (G. Ducoin) ، وكاريكو لاكرانج (Garrigou-Lagrange)، وف غريغوار (F. Grégoire)، وج دفينانس (J. de Finance) ، وج جوليفه (R. Jolivet)، ول ريكار (L. Ricard)، وش فابرو (C. Fabro)، وس برونون (S. Breton) ، وا دوندين (A. Dondeyne) ، والسادة ب فرنوت (P. Vernotte) ، وج شايكس روي (J. Chaix-Ruy) ، وش مورو (C. Moreau).

○

عند انتهاء المؤتمر دُعي بعض موفدي الجامعات الى الكلام فابدى هؤلاء رغبتهم على التوالي في رؤية المزيد من التماسك بين الباحثين والمزيد في فهم مختلف المناهج فطالبوا بالاستزادة من التعمق في دراسة القديس توما استزادة يجدون فيها ثروة كبيرة لم تدوّن حتى الآن ويفادون منها في فهم دراسة الفلسفات العصرية فهماً أتمّ يهيئ لهم ما يحولهم القاء ضوء على مشكلات العالم المعاصرة ومشكلة الانسان والله وقضيتي الوجود والحقيقة .

ولم يقصر هؤلاء في كلامهم عن لفت انتباه رجال المؤتمر الى ضرورة توسيع علم القديس توما بمقارنة تعليمه بفلسفات الشرق القديمة، بفلسفتي الهند والصين فيستفيد كلا مفكري المعسكرين فوائد جمّة تتضاعف معلوماتهم، ولماذا لا تنعقد جلسات المؤتمر التوماني المقبلة في بلد من بلاد تلك الحكمة القديمة .

○

لقد كان لزعيم الاعظم ان يفتتح المؤتمر بخطاب يوجه فيه خطى ابحاثه . فلما ذهب المؤتمرون لمقابلة قداسته في قصر كندولفو تمكّنوا من رؤيته متمتعاً بكامل صحته وشاهدوه يرتقي عرشه بخفة وبدون صعوبة ويستمعون اليه موزّعاً عليهم تعليمه الواضح بقوة وجلاء، فقد كانت ايا. انه تقف عند جميع براهينه القاطعة ويقطعها تقطيعا وكان المستمعون مغتبطين لرؤية ذلك الشيخ الجليل ناعماً بتمام العافية والقوة وبعد ان انتهى من خطابه اقبل يوجه كلمة الى الذين اسعدهم الحظ وكانوا على مقربة من عرشه فبدا لنا انه يعرفنا فقد كان يرحب بمجيء كل منا ويخصه بكلمة تنم على انه لم يكن غائباً عنه شيء من حياة الامم المختلفة.

فيه رغب الحبر الاعظم مستمعيه ذكرهم ولده « معرفة تعليم القديس توما معرفة راسخة » بقوله « وذلك اذا كنا لا نريد ان يجرنا طيش الفلسفات الدارجة التي لن تكتب لها حياة طويلة والتي لا تدع وراءها الا البلبلة والشكوك ».

ولم يشأ الحبر الاعظم الوقوف عند معالجة هذا الامر وحده بل رغب في توجيه الافكار الى مسألة اساسية من بنات الساعة الحاضرة تتطلب انتباهاً خاصاً ... الا وهي علاقات الاختبارات العلمية بالفلسفة .

وبعد ان لفتت هذه المقدمة انتباه المستمعين بحث الخطاب الحقيقي تكوين المادة اولاً ومذهب الجبرية ومذهب حرية الانسان ثانياً واخيراً العلاقة القائمة بين المادة والقوة . فان الفلسفة وان كانت مستقلة عن العلوم عليها ان لا تنسى التقدم العلمي. وختم الحبر الاعظم خطابه عند هذه النقطة قائلاً: « انكم تفهمون الفائدة الكبرى والضرورة القصوى اللتين تقتضيان الفيلسوف ان يعمق معارفه في ضروب تقدم العلوم فاننا لن نستطيع المساهمة في تفسير العلوم باسم الفلسفة ما لم نستوعب نتائج القضايا الرياضية العملية واوضاعها النظرية فان لكل فرع من فروع المعرفة ميزاته الخاصة به وعليه ان يعمل بالاستقلال عن غيره بيد ان هذا لا يعني انه من الواجب ان تتجاهل لان صرح المعرفة الانسانية العظيم لا يستطيع الانبثاق الا من التفاهم والتآزر المتبادلين لينسجم مع الانوار العلوية والحكمة الالهية ».